# حديثٌ عن الأهواء

## الجزء الأوّل من سلسلة "الصلاة القلبيّة في عصر التكنولوجيا والتشتُّت"

الأب مكسيموس كونستاس[1]

**هل ينبغي لنا أن نقرأ كتاب "الفيلوكاليا" إذا لم نكن قد قرأنا العهد الجديد بالكامل؟ هل وجدنا أنفسنا يومًا نعزف على "قيثارةٍ روحيّةٍ في الهواء"؟ وماذا يعني التقدُّم في الحياة الروحيّة؟**

**هذا المقال هو المحاضرة الافتتاحيّة لسلسلة: "الصلاة القلبيّة في عصر التكنولوجيا والتشتُّت"، والتي ألقاها الأب مكسيموس (كونستاس) في شباط ٢٠١٤ أمام كهنة أبرشيّة لوس أنجلوس التابعة لبطريركيّة أنطاكية وسائر المشرق في أميركا الشماليّة.**

**[...]**

لي عظيم الشرف والامتياز أن أعمل مع شبّانٍ يستعدّون للكهنوت. قد يكون هذا العمل أهمَّ مهمّةٍ دُعيتُ إليها في حياتي، لأنّ ما أشاركهم إيّاه وأساعدُهم على فعله سيكون له تأثيرٌ على الناس الذين سيتعاملون معهم. فحياة الكاهن تؤثّر في المئات والآلاف، لذا آخذ هذا العمل بجدّيّةٍ تامّة. وبما أنّهم في عمر الشباب، فهُم لا يزالون في طَور التعلُّم، ويملكون أحيانًا أفكارًا غير صحيحة، وهو ما يضطرُّني أحيانًا إلى تعديل بعض مفاهيمهم، وأحيانًا أخرى إلى توبيخهم، مُقاربًا الأمر بأساليب مختلفة.

إحدى النواقص البشريّة الشائعة التي أراها لدى الكثيرين منهم هي توقُهم لقراءة نصوصٍ مثل "الفيلوكاليا" أو كتاباتٍ متقدّمةٍ أخرى، فيما لا يكونون قد قرأوا العهدَ الجديد بالكامل بعد. يريدون أن يقتبلوا اختباراتٍ مستيكيّةً لله - يُصلّون بحرارة، يذهبون إلى الكنيسة، لكنّ عقولهم تشرد في الأوهام، ويرغبون في بلوغ أسمى

[1] أستاذ في العلوم الإنسانيّة في جامعة أوستن بولاية تكساس. شغل سابقًا منصب أستاذ اللاهوت في جامعة هارفارد، وأستاذ علم الآباء والروحانيّة الأرثوذكسيّة في كلية الصليب المقدّس اللاهوتيّة. سيمَ راهبًا في جبل آثوس حيث عاش سنواتٍ عديدة في دير سيمونوبترا. وله مؤلّفات عديدة تشمل الكتب والمقالات والترجمات. يتناول عمله لاهوت آباء الكنيسة، والتفسير الآبائيّ للكتاب المقدّس، وكتاب "الفيلوكاليا"، والروحانيّة الأرثوذكسيّة، وسيَر الشيوخ المعاصرين، والفنّ الكنسيّ والأيقونات.

الاختبارات المستيكيّة قبل أن يكونوا قد خاضوا أبسطَ أشكال الجهاد النُّسكيّ. أسأل بعضَهم: "هل تصومون يومَي الأربعاء والجمعة؟"، فيُجيبونني: "لا، لأنّهم يقدّمون الجبن في الكافتيريا وينتهي بي الأمر بأكله"، لكنّهم يرغبون في تلك الاختبارات المستيكيّة! إنّ الجبن والاختبارات المستيكيّة ليسوا بالضرورة غير متوافقين، ولكنْ للأمور ترتيبٌ صحيحٌ وطبيعيٌّ.

إنّها نزعةٌ بشريّةٌ أن نرغب في الأفضل والأعظم حين نراه، فيما ننسى أنّه علينا القيام بأعمالٍ أخرى تجعلنا مستعدّين لبلوغ ذلك المستوى. نظنُّ أنّنا مستعدُّون للمآثر العظيمة قبل أن نكون قد اهتممنا بصغائر الأمور التي تبدو لنا دون مستوانا. لا يمكننا النزول إليها لأنّنا "لاهوتيّون ومتعلّمون وطلّابٌ إكليريكيّون ومدعوّون من الله"، فلا يليق بنا إحراج أنفسنا علانيةً بفعل أمورٍ صغيرة - بل يجب أن نُرى ونحن نفعل العظائم. غير أنّ في هذا، طبعًا، نسيانٌ لقول الربّ في الإنجيل: "الأمين في القليل أمينٌ أيضًا في الكثير". والنصُّ اليونانيّ لهذه الآية مثيرٌ للاهتمام، لأنّ كلمة "القليل" جاءت في صيغة المفرد؛ أي "مَن كان أمينًا في أمرٍ صغيرٍ واحد"، هو أمينٌ في الكثير، باليونانيّة هنا "أشياء كثيرة". لا يظهر هذا المعنى دائمًا في الترجمات الإنكليزيّة القياسيّة؛ وأنا أفهم من ذلك أنّ الشخص الأمين في أمرٍ صغيرٍ واحدٍ سيكتسب بطريقةٍ ما مجموعةَ مهارات، أو انضباطًا، أو فكرًا (ethos). فالأمانة في أمرٍ صغيرٍ واحدٍ ستؤدّي حتمًا إلى الأمانة على نطاقٍ أوسع.

أظنُّ أحيانًا أنّه ما من وجودٍ لعظائم؛ توجد صغائر فقط، وإذا استطعنا الاهتمام بها، ستتبعُها العظائم تلقائيًّا. وأوضح مثلٍ على ذلك هو الصَّوم، الذي ليس صغيرًا تمامًا لكنّه أمرٌ واحد. إذا استطاع الإنسان أن يكون أمينًا في نظام الصَّوم، الذي يبدو بسيطًا نوعًا ما، واكتسبَ ذلك الانضباط، فلَكُم أن تتخيّلوا القدرة التي سيمتلكها في مجالاتٍ أخرى: القدرة على احتمال التجارب، ومنع أفكارٍ معيّنةٍ من دخول عقله، أو عدم الاستجابة لنزعاتٍ مثل الغضب أو الشهوة أو الكبرياء وما يشابهها. لا يمكننا البدء في خوض الجهاد ضدَّ هذه الخطايا والتجارب الكُبرى إذا لم نتمكّن من فعل ذلك على مستوى مجهريّ. أعتقد أنّكم إذا فعلتُم ذلك على مستوى مجهريّ، ستجدون أنّ الأمور الكبيرة لم تعُد تبدو كبيرةً أو قويّة، لأنّكم اكتسبتُم قوّةً في النفس، أو استقرارًا، أو انضباطًا في الشخصيّة يمكن تطبيقه على مجموعةٍ كاملةٍ من الخبرات أو الظواهر.

قد ترغبون في عزف البيانو مثل شوبان أو بيتهوفن، وهذه رغبةٌ صالحةٌ في جلب الجمال إلى العالم. فالموسيقى هبةٌ من الله. اقرأوا عظة القدّيس باسيليوس الأولى عن المزامير، والتي تحتوي على مقطعٍ جميلٍ ومعروفٍ حول الأساس اللاهوتيّ للموسيقى التي يقول إنّها موهبةٌ أعطاها الروحُ القدس للكنيسة. لكن لتعزفوا مثلهما، عليكُم أوّلًا أن تقضوا وقتًا طويلًا في التمرُّن على السلالم الموسيقيّة. إنَّ التمنّي أو الرغبة لا يكفيان وحدهما. لا يمكنكم الجلوس والعزف كالبارعين لمجرّد أنّكم ترغبون في ذلك؛ فالأمر يتطلّب الكثير من العمل الشاقّ. تسمعون الناس اليوم يقولون إنّه لا يوجد شيءٌ اسمه "عبقريّة فطريّة"، فكلُّ شيءٍ يمكن قياسه، ويقولون إنّ الأمر يتطلّب عشرة آلاف ساعة ليصبح المرء بارعًا في مجالٍ معيّن. ليس في الموضوع سرٌّ؛ يكمن الأمرُ، ببساطةٍ، في العمل الشاقّ. بالطبع، يوجد أشخاصٌ أذكى من غيرهم، لكن بعشرة آلاف ساعة عمل، أعتقد أنّه يمكن لأيّ شخصٍ أن يبرع في أيّ شيء.

إذا لم نتدرّب، ولم نتمرّن على سلالِمنا الموسيقيّة في العالمَين المادّيّ والروحيّ، سينتهي بنا الأمر ونحن نعزف في العالم الروحيّ على ما يشبه قيثارةً في الهواء. ليس من السهل البدء بتعلُّم العزف على قيثارةٍ حقيقيّة؛ فهو يؤلم أصابعكم في البداية، وعليكم أن تصبروا حتّى يتصلّب جِلدُها، وهذا يستغرق وقتًا. لذا تفكّرون قائلين: "ليس لديّ وقتٌ لذلك، لكنّني سأقفُ أمام المرآة وأعزف على قيثارةٍ في الهواء". هذا نوعٌ من الوهم. أو قد نظنُّ أنّنا نُصارِع الله، بينما نحن في الحقيقة نُلاكِمُ الظلّ. نحن لا نريد أن نكون عازفي قيثارةٍ في الهواء أو مُلاكمي ظلّ، بل نريد أن نكون فنّانين وموسيقيّين ومُبدعين روحيّين، أي أشخاصًا لا يكتفون بإصدار موسيقى جميلة، بل تكون حياتُهم نفسُها موسيقى جميلةً بسبب الانضباط والعمل الذي قاموا به. من المهمّ القيام بالأشياء في ترتيبها الصحيح والطبيعيّ. والصحيح هو الطبيعيّ. عندما تبنون بيتًا، تبنون الأساس قبل أن تضعوا السَّقف، لكنّ طلابي يريدون وضع السَّقف قبل وضع الأساس؛ وبالطبع، هذه خطّةٌ غريبة.

مذهلةٌ حقًّا هي أقوال آباء الصحراء، فمع أنّها من أقدم النصوص الأدبيّة المسيحيّة، تبدو معاصرةً وحديثةً ومناسِبة، وأحد أسباب ذلك هو أنّ فِكرها يقتصر فقط على مبادئ الصحراء وبساطتها. ثمّة قصّةٌ عن الأنبا بيمن، وهو أحد أبرز آباء الصحراء. يبدو أنّ علمانيًّا من مدينةٍ قريبةٍ سمع عن هذا الأب العظيم وأراد مقابلته، فحزمَ أمتعته وارتحلَ عبر الصحراء إلى الجبال حيث يعيش الأنبا بيمن. طرقَ الباب فدعاهُ الأنبا بيمن إلى

الدخول. جلسا وقدّم له الأب بعض الطعام، وتحمّس الرجل فورًا، وأخذ يتحدّث عن ملكوت السموات. ما إن سمع الأنبا بيمن هذا حتّى انصرفَ عنه وأدار له ظهره. أدرك الرجل أنّ الأمور لا تسير في الاتّجاه الصحيح، فقام وجمعَ أغراضه وعاد إلى الجبل.

ولكن، بينما كان يشقُّ طريقه في الصحراء، بدأت أفكاره تعتمل في داخله: "لقد قطعتُ هذه المسافة كلَّها لأرى هذا الرجل، وتوقّعتُ أن يرحّب بي، وكنتُ أريد التحدُّث عن ملكوت السموات، فما هذا التعامُل؟!". بدأ يغضب، فاستدار وقرّر العودة لمواجهة الأنبا بيمن ومطالبته بتفسير. نظر الأنبا بيمن في عينيه مباشرةً، وقال له: "إذا جئتَ إلى هنا لنتحدّث عن ملكوت السموات، فليسَ لديّ ما أقوله لكَ، أمّا إذا جئتَ لنتحدّث عن الأهواء، فاجلسْ وافتحْ قلبكَ وسأملؤه بكلّ أنواع الصلاح".

أراد الرجل الحديثَ عن الملكوت، لكنّنا نحتاج إلى الحديث عن الأهواء أوّلًا، لأنّها هي ما دخلَ إلى وجودنا عندما خسرنا ملكوت السموات. كيف نتحدّث عن الملكوت من دون معالجة الحالة الواقعيّة التي نحن فيها؟ نريد التحدُّث عن النور ونحن ممتلئون ظُلمة. نريد الانتقال إلى الرياضيّات العليا -قراءة الفيلوكاليا والاختبارات المستيكيّة- قبل أن نقرأ العهد الجديد أو نلتزم بانضباطٍ مسيحيٍّ أساسيّ، أو قبل أن تتوفّر لدينا الشجاعة لمواجهة ظلمة الأهواء في داخلنا. إنّ لفظة "passions" (أهواء) إشكاليّةٌ لأنّها لم تعُد تعني الكثير في لغتنا اليوم -فلدينا شغفٌ (Passion) بالغولف أو السياسة- لكنّ الكلمة الأفضل هي "الإدمان" (Addiction) -أي التعلّقات العاطفيّة القويّة، سواءٌ بالأشياء المادّيّة أم بالأفكار والصُّور، مثل فكرتي عن ذاتي. وتمامًا كما الحال مع الطعام، لا حدود للأشياء التي قد يُدمن عليها الناس، أو المواضع التي قد يعلقون فيها خلال مسيرة تطوُّرهم. إنّها كلمةٌ قويّةٌ وقاسية، لكنّها الكلمة الأفضل وتتّسق مع فكر الآباء.

إنّ الجذر الروحيّ لكلّ أنواع الإدمان هو هذه الحالة الأهوائيّة التي نعيشها جميعًا. تركيزنا هنا هو على اليقظة الداخليّة، لا على التشتُّت أو التركيز على الأشياء التي هي خارج أنفسنا، بل على الانعطاف نحو الداخل لاكتشاف نعمة الروح القدس الممنوحة لنا بالمعموديّة. عندما نسحب استثمارنا العاطفيّ من العالم، ونُعيد توجيه انتباهنا نحو الداخل، سنجِدُ في أعماق أجسادنا وكينونتنا، بالإضافة إلى حضور الله، أكثر الأشياء ظلمةً. وربّما يكون وجودُها هو ما يمنعنا من النظر إلى الداخل، لأنّه ثمّة فوضى في هذا الوجود الذي كان

يتقيّح فينا منذ مدّةٍ طويلة، ونحن في حالةِ إنكارٍ ولا نريد التعامل معه. لذا، فإنّ التركيز على "الفيلوكاليا" لا يتعلّق فقط بصلاة يسوع، على الرغم من مركزيّتها، لأنّ أمورًا أخرى ترافقها، وأهمّها إدراك الأهواء والإقرار بوجودها والجهاد ضدّها. لن أقول "الانتصار" على الأهواء لأنّنا لا نستطيع فعل ذلك. يقول الشيخ إميليانوس (رئيس دير سيمونوبترا السابق) إنَّه عندما تكون مقيَّدًا (أي في حالة الإدمان والوقوع تحت سيطرة الأهواء)، لا يمكنك فكّ قيودكَ بنفسك. يجب أن يأتي آخر ويفكّ تلك السلاسل والأقفال؛ وبالطبع، هذا الآخر هو نعمة الله. ما يخصُّنا نحن هو أن نكتشف أوّلًا الظلمة في داخلنا، وهو أمرٌ تصعب جدًّا رؤيته.

إنّ النموّ في حياة الفضيلة ليس شعوركم المتزايد بالرضا عن أنفسكم، أو ظنّكم أنّكم تزدادون فضيلة؛ بل كلّما تقدّم المرء روحيًّا، سمح له الله برؤية المزيد من ظلمته الداخليّة، لأنّ رؤيتها صعبةٌ جدًّا، ولن يسمح لكم الله برؤيتها إذا كان يعلم أنّكم لا تستطيعون تحمُّل ذلك. رؤية ذلك ساحقةٌ ومُحطِّمة، لكنّها أيضًا تُواضِعُكُم، والله يمنح نعمته للمتواضعين. هذا الاعتراف بعجزنا وضعفنا هو ما يجذب نعمة الله إلينا. لا يمكن أن يوجد لقاءٌ حقيقيٌّ مع قداسة الله لا يؤدّي في الوقت عينه إلى كشفِ عدم قداستي.

بالنسبة لي، الصورة الكتابيّة العظيمة لهذا هي عندما التقى القدّيس بطرس بالربّ بعد انتهاء الصيّادين من الصَّيد فارغي الأيدي، فطلب منه الربُّ أن يحاول ثانية. بالطبع، يعرف بطرس مهنته لأنّه صيّاد، فكيف يأتي نجّارٌ ليُملي عليه ما يفعل؟ غير أنّ بطرس لم يعترض. غالبًا ما نكون حسّاسين تجاه مجالات اختصاصنا، ولا نحبُّ أن يُملي علينا الآخرون ما يجب فعله. وبطرس هو صيّادٌ محترفٌ، لكنّه ذهب وألقى الشِّباك ثانيةً، فامتلأت، فأدرك أنّ يسوع هذا، كائنًا مَن كان، ليس مجرّد شخصٍ عاديّ. وماذا فعل؟ التفتَ نحو يسوع، ومع أنّنا اعتدنا هذا المشهد من كثرة سماعنا للإنجيل، فقد كانت استجابته مُذهلةً حقًّا: جثا على ركبتَيه أمام الربّ وقال له: "اخرجْ من سفينتي يا ربّ، لأنّي رجلٌ خاطئ". ها هو الأمر. إعلان قداسة يسوع، أي الله، كان حقيقيًّا لبطرس لأنّه جاء مقترنًا بوعيه لعدم قداسته هو. وليس هذا تقليلًا من شأن بطرس أو إهانةً له، وهو لم يتحطَّم نفسيًّا؛ هذا جرحٌ مُخلِّص. إنّه اختبارُ انسحاقٍ سمح له بمعرفة نفسه، وفي الوقت عينه، أعلن له ملء حضور يسوع.

يقول القدّيس مكسيموس المعترف، في تلاعُبٍ لفظيٍّ باليونانيّة: "إنّ الحديث (logos) عن الأهواء، هو انحدارٌ إلى الهاوية مع الكلمة (Logos)". قد يبدأ شخصٌ "لوغوس" (حديثًا) عن "اللوغوس" (الكلمة)، "لا ليبقى هناك، بل ليكسِرَ قيود تعلُّقات النفس بالعالم، وهكذا يقوم مع الكلمة". وهذا يتّفق تمامًا مع تعليم الأنبا بيمن بأنّنا بحاجةٍ إلى الغوص عميقًا في الحديث عن الأهواء، لا لنمكث فيها ونتّخذ منها مسكنًا، بل لنقوم من ذلك العُمق، ويقيمنا كلمةُ الله ويحيينا.

*نقلتها إلى العربيّة أسرة التراث الأرثوذكسيّ*

**Source:** Fr. Maximos Constas (2016). “Discoursing on the Passions”, in *Prayer of the Heart in an Age of Technology and Distraction*. Published by *Patristic Nectar Publications,* accessed at [OrthoChristian.com](OrthoChristian.com).